أصول الإنشاء والخطابة

للهمام العلامة النحرير الشيخ سيدي
محمد الطاهر ابن عاشور الشريف
القاضي المالكي بالقطر التونسي
أمنه الله
آمين

قسم الانشاء

الطبعة الاولى

طبع بمطبعة النهضة نهج الجزيرة عدد ١١ - تونس
سنة ١٣٣٩

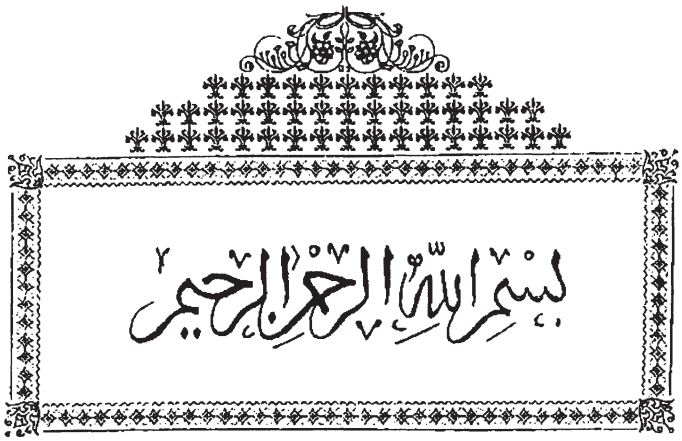

وصلى على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله منشىء الخلق ومعيده * وواهب البيان لراغبه ومستزيده * والصلاة والسلام على رسوله الذي ايده بمعجز القرآن * وارسله بالبينات وانزل معه الكتاب والميزان * وعلى آله واصحابه افضل من فرع المنابر * وسطرت فخره الاقلام في الدفاتر * اما بعد فان مزية فن الانشاء قد ترجمت عنها كثرة مطالبيه * و نباهة شان النابغين فيه * كيف وهو الذي يفصح به المرء عما يريد من المقصد * وطالما كفى قلم الكاتب مهمه فاضره ان لا يهز المهند * وقد كنت امليت على بعض المتعلمين عجالة تلم بالمهم من اغراضه الماما * وتريش لقناص شواردة سهاما * وتمكن بايديهم لصعابه زماما * تجنبت فيها طريقة جمهور المؤلفين في هذا الفن اذ ملؤوا كتبهم بمسائل علم المعاني والبيان * وربما تجاوزوا الى بقية علوم اللسان * وتركوا جانب المسائل الخاصة بهذا الفن ظهريا * إلا قليلا منها لا يفيد المطالع كمالا ادبيا * وقد تلقفوا ذلك الصنيع فتابع المتاخر المتقدم وتشبه فيه الضالع بالضليع و العذر للمتقدمين منهم . ان علم الادب لم يكن في عصرهم منخولا بعض فنونه من بعض اما المتأخرون فانما اتبعوا طريقة المتقدمين بعد ان تمايزت الفنون حتى اصبحت طلبة هذا الفن ان هم شرعوا فيه ثقلت لهم

المسائل التي قرءوها في علم البلاغة فلم يجدوا فائدة يستز يدونها * ولا مهمة ينقلونها * فر بما ادخل على اذهانهم بذلك شيء من التهو يس ز يادة على ما اضيع من و قتهم النفيس * ولذلك جعلنا بعض مسائل فنون البلاغة لهذا الفن كالاصول لحيل عليها المتعلم * ونكتفي فيها بتوقيف المعلم * لئلا يطول الفن بلا طائل * واخذنا من كلام ايمة الفن المتناثر * ما جعلنا له قواعد وكليات و ادرجناه تحتها كالشواهد فجاء شبيها بقطار نظم من مرتاض الشوارد * وجاء اول املاء فيما علمت ظهر به فن الانشاء مهذبا ممتازا عما سواه ومن خبر ما سلف من كتبه علم قيمة ما صنعنا * وكيف تتبعنا مواقع القطر فانتجعنا * وكان العزم معقودا على ان نعود الى تلك الامالي فنهذب دياجها ونعالج مزاجها فحالت دون ذلك شواغل *وصرفت الذهن خصوم ونوازل * الى ان اشتدت حاجة الراغبين في تعلم الانشاء الى كتاب يبين طرائقه * و يدني لجانيه حدائقه * فرأيت من اختلاف طرق المزاولين * وتعطشهم الى كتاب مذكر او معين * ما حداني الى ان نفضت منها عث الهجران * وامطت عنها عناكب النسيان * ورجاءي من اهل الادب ورواته * واطباء اللسان واساته * ان يتلقوها تلقي الجيش للر بيئة * و يضموا اليها ما توضحه شمس افهامهم المضيئة *

مقدمة

الغرض من تدريس الانشاء هو ابلاغ المتعلم الى الافصاح عن مراده ، كتابة او قولا من اقرب طريق وسلوك سبل الافهام باحسن ما يستطاع من التعبير ومن الواضح ان ذلك لا يحصل بقواعد مطردة بل الاصل فيه هو الممارسة ومزاولة مآثر نوابغ الكتاب في الفاظهم و معانيهم لتحصل منها في ذهن المطالع قوالب غير جزئية تفرغ فيها امثالها (١) وانما القواعد التي تدرس في هذا الفن ليست غير انموذج من طرق التعبير او كليات في حسن التنسيق واختلاف اغراض الكلام و نحو ذلك مما يجعل بصيرة المتعلم قادرة على الحكم والتمييز بين ما يجب ان يأخذه وما يجب ان يتركه . اذاً فالانشاء علم تعرف به كيفية اداء المعاني التي تخطر بالذهن او تلقى اليه على وجه تتمكن به من نفوس المخاطبين من حيث حسن ربط اجزاء الكلام و اشتماله على ما يستجاد من الالفاظ ويحسن من الاساليب مع بلاغته

فقولنا تعرف به كيفية اداء المعاني يدخل فيه علوم اللغة كلها و قولنا التي

---

(١) اردت بقولي « قوالب غير جزئية » ان النتائج التي يزاولها المتعلمون هي امور خاصة جزئية وليس المراد حفظها فقط كما يتوهم كثير ممن يروم تعلم الانشاء حتى اذا دعا احدهم داع الى تحرير شيء لم يجد من نفسه قدرة على غير السرقة والاخذ مما حفظه سواءنا سب المقام ام لم يناسب فيجيء انشاؤه مسلوب الروح مغسولا بل المراد من المتعلم ان يعلم تلك الامثلة الجزئية لتحصل منها صور في ذهنه من كيفية التعبير واختلاف الاساليب و ذلك هو المعبر عنه بالذوق المعرف عندهم بانه قوة ادراكية لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية

تخطر بالذهن او تلقى اليه لقصد التعميم لان من الناس من لا يحسن التعبير عن غير المعاني التي تخطر بذهنه فاذا كلف انشاء شيء يقترح عليه لم يستطع حتى قيل ان الافضل للكاتب ان يكتب كما يريد ويراد منه (٢) وقيل ان الحريري صاحب المقامات لما احضر من العراق لديوان الانشاء ببغداد وكلف كتابة كتاب افحم حتى قيل فيه

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالعراق كما * الجمه في بغداد بالخرس

وقولنا على وجه تتمكن به من نفوس المخاطبين بها خرج به علم اللغة والنحو والصرف اذ لا يشترط فيها ذلك . وقولنا من حيث حسن ربط اجزاء الكلام الخ . لاخراج علم البلاغة لانه لا تشترط فيه تلك الحيثية وبذلك فارق هذا الفن بقية فنون الادب اللساني . وقولنا ما يستجاد من الالفاظ ويحسن من الاساليب اشارة الى ان من اخص وظائف المنشئين التدرب على اختيار اخف الالفاظ استعمالا ورونقا وتحسين اسلوب الخطاب واختيار ما يناسب المقام منها وسياتي الكلام على اختيار الالفاظ في القسم اللفظي والكلام على الاساليب بعد هذا . وقولنا مع بلاغته لاخراج ما ليس ببليغ فليس من الانشاء المبحوث عنه عرفا وانما هو التعبير عن المعاني كيفما اتفق وذلك لا يتوقف إلا على معرفة المفردات وكيفية ربط الكلم بعضها ببعض والبحث عنه في اوليات علمي النحو والصرف . وموضوعه الكلام العربي من حيث ربط جمله ومحاسن كلمه وبذلك فارق موضوع البلاغة اذ الانشاء لا يتعلق إلا بالكلام المشتمل على جمل كثيرة ولا

---

(٢) وقد قالوا ذلك في المفاضلة بين ابي اسحاق الصابي والصاحب بن عباد فان الصاحب يكتب كما يريد والصابي يكتب كما يراد منه وبين الحالين بون بعيد انظر معاهد التنصيص في ترجمة الصابي

يدخل الجملة الواحدة المفيدة إلا ان بعض ابواب من البلاغة لا تخلو من شديد انتساب بمسائل الانشاء كالفصل والوصل والايجاز والاطناب و بعض المحسنات البديعية . واستمداده من كلام البلغاء وخطبهم ورسائلهم واشعارهم وآداب العرب وعوائدهم ومشهور احوال الامم المعروفة و امثالها (قال ابن الاثير في المثل السائر) قد قيل ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل علم واهم ما يفتقر اليه انواع ثمانية : علم العربية . و امثال العرب العاربة ومن بعدهم وايامهم و وقائعهم والاطلاع على كلام المتقدمين من الكتاب في النظم والنثر وحفظ كثير منه . و معرفة الاحكام السلطانية وحفظ القرآن والتدرب به . ومشهور الاخبار النبوية

ولم يكن فن الانشاء مخصوصا بالتاليف و لكنه كان من جملة فنون آداب اللغة العربية فيوجد بعض مسائله متناثرا في كتب البلاغة ومختارات خطب العرب و ملحهم و بداهة اجوبتهم وامثالهم فتكون مسائله مشمولة بالرواية من اواخر عصر الدولة الاموية اذ كان ابن القرية قد عنى بنوادر العرب و ملحهم ثم شملت بالتدوين في اوائل الدولة العباسية ضمن كتب ادب العرب مثل كتاب ابي عبيدة واضرابه ثم كان بعد مدرجا في كتب بلاغة العربية الى ان شب شباب ديوان الانشاء في الدولة العباسية وما تفرع عنها فاصبح بلغاء الكتاب يميزون مسائل هذا الفن بالتدوين و ذلك من منتصف القرن الثالث فمنهم من جمع ما صدر عنه من بديع المراسلات او الخطب او المقامات ومنهم من جمع افضل ما يؤثر عن العرب ومن يليهم من غرر الخطب و بدائع الجمل كما صنع الجاحظ في بيانه (توفي سنة ٢٥٥) و منهم من جمع امثال العرب وموجز اقوالهم كما فعل ابو منصور الثعالبي في جل كتبه (توفي سنة ٤٣٠) ثم جاء الذين حاموا حول ضبط الاصول وتدوين القواعد فمزجوا الفن بمسائل علوم البلاغة والمحسنات واكثروا فيما عدا ذلك بالوصاية على تتبع منشئات البلغاء من الكتاب واتوا بجملة

منها وو ازنوا بينها لتحصل للمتعلم ملكة يقتدر بها على تمييز الحسن من غيره والشيخ على منوال ما يراه حسنا وفي هذه الطريقة ظهرت افضل كتب الفن واقر بها الى الطريقة التعليمية كما فعل ابن الاثير في المثل السائر وسبقه لذلك ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين (توفي سنة ٣٩٥) وعلى وقع خطاهم اقتفى السالكون المطولون كتبهم والمقصرون

وملكة الانشاء تكتسب من جهة المعنى ومن جهة ما يعبر عن المعنى وهو اللفظ والكتابة (١) فالاول ينحصر في معرفة ايجاد المعنى في الفكر وترتيبه . والاستنتاج منه . والثاني يبحث عن حال اللفظ ومناسبته للمعنى مفردا او مركبا وذلك اصول اساليب الكتابة

هذا وللانشاء فضيلة واضحة فانه لم يخل عصر من رجال تمكنوا من سوق غيرهم بعصي آرائهم ففي الحديث « ان من البيان لسحرا » وقد اختار الله تعالى المعجزة لاصحاب اللسان العربي بلاغة القرآن وقديما ما عالج ديموستين الخطيب اليوناني من العناء ليتدرب على الخطابة التي تمكن بها بعد على قهر مليبوس ملك مقدونيا ووالد الاسكندر وسمع امير المؤمنين على ابن ابي طالب رضي الله عنه زياد ابن ابي سفيان وكان يومئذ لا يدعى لابيه يخطب في زمن عمر رضي الله عنه فقال لو كان هذا الفتى قرشيا لساق العرب بعصاه » ولو لا مكانة عبد الله ابن المقفع الشهير في الكتابة لما سلم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس اخو السفاح

---

(١) اعلم ان مقام الكتابة في فن الانشاء غير مقام القول فقد يحسن في الكتابة ما لا يحسن في الخطابة او في المحادثة والعكس فلا يصح ان يكتب المرء كما يقول ولا العكس

من غدر ابن اخيه ابي جعفر المنصور فان ابن المقفع كتب له على المنصور عهدا لم يترك للمنصور فيه مدخلا للخيانة إلا سده عليه (١)

كيفية الانشاء للمعنى

الانشاء كاسمه احداث معان منسقة ومفرغة في غرض مطلوب فاذا احسن وصلها وجمعها جاء الانشاء كاملا واساس ذلك ثلاثة امور . المعنى الاساسي . وتفصيله . وايضاحه . اما المعنى الاساسي فهو الموضوع الذي يجول في الفكر ويجيش في به الخاطر وهو غرض اجمالي يجب احضاره على اجماله ثم يشرع في بيانه و اقناع السامعين به فهو نظير المطلوب في اصطلاح المناطقة اعني ما يقام عليه البرهان و هو في اصطلاح الكتاب ما تترجم به الرسالة او تعنون به المقالة مثل قولنا العلم اساس العمران . والاتحاد سبب القوة . ولا نريد من اجماله كونه بسيطا وانما نريد انه غير ملحوظ فيه التفريع ابتداء

(١) كان ابن المقفع كاتبا لعيسى بن علي اخي عبد الله المذكور و كان عبد الله قد وقعت بينه و بين ابي جعفر المنصور احن هزمه فيها ابو جعفر المنصور ففر الى البصرة متواريا عند اخيه عيسى ثم سال الامان من المنصور فبذل له الامان ناويا الغدر به فسأل عبد الله من ابن المقفع ان يكتب له عهدا وثيقا على المنصور ليمضيه له فكتب له عهدا لم يبق للمنصور به مدخلا الى الغدر إلا سده عليه وابن المقفع هو عبد الله بن داذ جنشنش اصله من خراسان و لما اسلم سمي عبد الله ولقب ابوه بالمقفع لان الحجاج ضربه حتى تقفعت اي تشنجت يده توفي عبد الله سنة ١٣٧ مغتالا في دار امير البصرة المعزول سفيان بن عيينه المهلبي وشهد له الخليل بالعلم والادب

واما تفصيل المعنى فهو التبصر في تقاسيمه وفروعه وتفكيكه باطالة النظر فيه للتنبه الى ما ينحل اليه من الحقائق والادلة والمرغبات او المنفرات

و اما الايضاح فهو شرح تلك المعاني وذكر ادلتها و فروعها ليمكن حينئذ التعبير عنها بوجه سهل التصور للسامعين فاذا حصل ذلك لم يبق إلا كسو تلك المعاني بالالفاظ فتسهل الافاضة في انشاء الموضوع المراد على حد ما قيل « فان وجدت لسانا قائلا فقل »

نقل عن عبد الله ابن المعتز انه قال : البلاغة بثلاثة امور ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر . وتجمع بين ما غاب و ما حضر. ثم يعود القلب على ما اعمل فيه الفكر فيحكم سياق المعاني ويحسن تنضيدها ثم يبديه بالفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها. » واعلم انه قلما يستطيع الكاتب او الخطيب ان يتناول الموضوع من اوله الى نهايته دفعة واحدة فان هو كلف عقله ذلك ارهقه ضجرا ولا سيما عند تشعب الموضوع وكثرة المعاني فيه فيكاد يياس من المقدرة عليه اذ تلوح له معان كثيرة فيروعه انتشارها و لا يدري كيف يبتدئها و لكنه ان اتبع هاته الطريقة المشروحة ورتب المعاني الاساسية و آخى بين المعاني الفرعية التي هي من نوع واحد واحسن ترتيبها فذلك وقت رفع القلم من الدواة للكتابة او وقت الانتصاب للخطابة لان ثمار الفكر قد اينعت وآن قطافها

مثال للتمرين

كتب ابن الاثير في الزهد في الدنيا ما ياتي : الناس في الدنيا ابناء الساعة الراهنة و كما ان النفوس ليست بقاطنة فالاحوال ليست بقاطنة ولا شبيه لها إلا الاحلام التي يتلاشى خيالها عاجلا وتجعل اليقظة حقها باطلا وما ينبغي حينئذ

ن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكانها لم تره و غاية مطلوب الانسان منها ان يمد له في عمره و يملى له في امتداد اكثره اما تعميره فيعترضه المشيب الذي هو عدم في وجود و هو اخو الموت في كل شيء إلا في سكنى اللحود و اما ماله فان امسكه فهو عرضة لوارث ياكله او حادث يستأصله وان انفقه كان عليه في الحلال حسابا وفي الحرام عقابا فهذه زهرة الدنيا الناضرة * وهذه عقباها الخاسرة آهـ : فقوله وما ينبغي حينئذ ان يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة هو المعنى الاساسي : و قوله في الدنيا ولا شبيه لها إلا الاحلام الخ الفقرات وقوله وهو اخو الموت في كل شيء الخ الفقرة من قبيل ايضاح المعنى وقوله الناس في الدنيا وقوله و كل ما تراه العين مع بقية الكلام ذلك كله من قبيل تفصيل المعنى و قد خلط ترتيبها خلطا تظهر به مقدرة المتعلم عند تمييز بعضها من بعض بحسب المراتب الثلاثة المذكورة

اساليب الانشاء

للانشاء اساليب متنوعة باختلاف الاغراض و المعنى باختلاف اساليب الانشاء اختلاف مستعمل الالفاظ و اختلاف كيفية ربط الجمل تبعا لاختلاف الاغراض و ذلك امر وراء اختلاف المعاني و اختلاف مقتضيات الاحوال المدون لاولها علم اللغة والنحو والصرف ولثانيها علم البلاغة وهو الامر الذي اذا حصل جاء الكلام عربيا و بضياعه تضيع اللهجة العربية مع بقاء المفردات اللغوية

وبقاء قواعد فن البلاغة (١) ولهذا لا تجد مشابهة بين كلام المتكلفين من الادباء وبين كلام العرب ومن يليهم من البلغاء اهل اللسان واحسن قول يفصح عن هذا قول الشيخ عبد القاهر رحمه الله في دلائل الاعجاز « ان النظم هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الاغراض وطريق علم ذلك هو عرض الاساليب المختلفة من كلام البلغاء على المتعلمين ليحصل لهم من اختلاف امثلتها صور متنوعة يلوح لاذهانهم منها وقت محاولة الانشاء انموذج فيما يصلح له من الاغراض وهو الذي سميناه فيما مضى بالقوالب غير الجزءية الا ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما راجعه بعض المسلمين في دية الجنين بقوله « كيف نودي من لا شرب ولا اكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك بطل قال له على وجه التوبيخ « اسجعا كسجع الكهان) فعاب

---

(١) لان اللغة الفاظ مفردة وجمل مركبة وكيفية نظم الجمل . فاذا عرف الانسان المفردات من علم اللغة والتصريف وعرف التركيب من علم النحو وعرف ما يجب تقديمه وتاخيره وحذفه ونحوه من علم البلاغة استطاع ان ياتي بكلام مفيد كما نقل الجاحظ في البيان ان رجلا يدعى نفيسا قال لغلام الجاحظ « (الناس ويلك انت حياء كلهم اقل) يريد انت اقل حياء من جميع الناس ويلك فهذا عرف المفردات ولم يعرف ترتيب التركيب ويسمى هذا بالتقيد فبمعرفة قواعد النحو والبلاغة يحترز عن هذا ويبقى النظر في نظم الكلام وربط بعض جمله ببعض وهو فن الانشاء وليس في علم البلاغة من قواعد ذلك الا مسائل غير كثيرة كمسائل الفصل والوصل والايجاز والاطناب ومسائل التخلص والاقتضاب وبعض المحسنات المعنوية ومع ذلك فان الاحاطة بقواعد البلاغة لا تفيد وحدها انشاء كلام عربي بليغ الاترى انه قلما وجدنا مشابهة

منه الاسلوب وان كان كلامه عربيا بليغا وقد جادل عتبة ابن ربيعة قريشا حين اجمعوا على ان يعتذروا لوفود العرب عام ظهور دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الى الله بالقرآن بان يقولوا هو شعر او كهانة او سحر فقال لهم : « والله ما هو بزمزمة الكاهن ولقد عرفت الشعر ورجزه وقصيده فما هو بشيء من ذلك وما هو بكلام بشر » ففرق بين القرآن وبين غيره باختلاف الاسلوب ومن الغلط ان يقتصر متعلم الانشاء على اسلوب واحد يعكف عليه مثل ان يقتصر على اسلوب مقامات الحريري او رسائل ابن الخطيب او غيرهما فلا يرتسم في ذهنه إلا ذلك حتى اذا اراد ان ينشيء لم يستطع ان يعدو ذلك الاسلوب مع انه لا يحسن في جميع مواقع الانشاء كما انه لا يحسن ان يقتصر على نوع من انواع الانشاء الادبي كالرسائل فقط فان للانشاء انواعا كثيرة :

فمن انواعه المراسلة . والخطابة . والمحادثة . والتصنيف . والمقامات . والوصف . وكلها فنون كثيرة ويجيء الانشاء فيها نظما ونثرا ولكل منها لهجة واسلوب يخالف ما لغيره فلا بد من ممارسة طرق البلغاء في هاته الانواع وفنونها ليحصل للممارس ذوق وملكة يستطيع به ان يعرف ما يجب في كل مقام من هاته المقامات بحسب العصور والعوائد (١) فليس ما يحسن للشاعر او الخطيب

بين كلام المولدين وكلام العرب وذلك لقلة حفظ النثر العربي وترى الشعر اشبه بالشعر العربي من النثر بالنثر العربي وما سبب ذلك إلا كثرة ما حفظ من الشعر العربي وقلة ما حفظ من النثر ولولا القرآن لما بقي من يستطيع أن ينشيء انشاء عربيا نثريا غير ان ذلك لا يكفي في استيعاب جميع الاساليب .

(١) لهذا نرى الكتاب والشعراء من اهل العصور الاسلامية الاولى قد ابتدعوا في الانشاء وابتكروا المعاني وفاقوا انشاء العرب الاولين بالرقة وحسن الصفات ونرى من جاء بعدهم يكتبون كلاما حسنا ولكن قلما

يحسن للؤرخ فلو ان ابا نصر العتبي وهب محاسن انشائه لغير كتاب التاريخ اليميني لما قصرت شهرته عن شهرة الحريري [1] ولكنه غلط في الوضع قال بشر ابن المعتمر ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني و يوازن بينها و بين اقدار المستمعين و بين اقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني و اقدار المعاني على اقدار المقامات واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات فان كان خطيبا تجنب الفاظ المتكلمين (علماء الكلام) و ان كان واصفا او مجيبا او سائلا كان الاولى به الفاظ المتكلمين اهـ

وجدنا منهم من يشبه انشاؤه الانشاء العربي وذلك لان كتاب العصور الاولى لما اتسعت لديهم دائرة المكاتبات ولم يكن اسلوب المراسلة فاشيا فيما قبل الاسلام تمكنوا لكونهم من العرب ان ينحوه اسلوبا يناسبه و يفارق اسلوب الخطابة والمحادثة مثل ما تراه في كتب الخلفاء الراشدين والامويين وترى مخالفتها لكيفية الكتب التي كانت تصدر من النبي صلى الله عليه و سلم . وكذلك يجب الاقتداء بهم مهما حدث فن جديد فيسن بلغاء الكتاب لذلك الفن اسلوبا يناسبه ويخالف اسلوب غيره من الفنون مع الاحتفاظ على الخصائص العربية وسياتي تفصيل هذا و بيان خصائص كل فن من فنون الانشاء

(١) ابو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار الف التاريخ اليميني نسبة الى يمين الدين محمود بن سبكتكين الغزنوي فاتح بلاد الهند

القسم الاول المعنوي[1]

انما ينشىء المنشىء معاني يعبر عنها بالفاظ فمادة الانشاء هو المعنى واللفظ ظرف له فاذا حاول الكاتب حتى ابتكر شريف المعاني اطاعته الالفاظ وجاء انشاؤه متينا واضحا ولا مرما تفاوت البلغاء والشعراء من العرب في الاجادة مع انهم ينطقون بلغة واحدة لا يتفاوتون في العلم بها و بخصائصها وانما تفاوتهم في ابتكار المعاني و النباهة في التعبير عنها و كذلك الامر فيمن بعدهم من المولدين فقد تجد الامام في اللغة لا يستطيع انشاء رسالة ينشئها من هو دونه علما كما قيل ان ابن دريد شاعر العلماء مع ان كثيرا ممن هو دونه اجود منه شعرا بكثير [2] قال الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز ان الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة و لا من حيث هي كلم مفردة و انما الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما اشبه ذلك اهـ فيدخل في قوله وما اشبه ذلك ما ذكرناه هنا وقد بسط هذا وكرره في مواضع من دلائل الاعجاز وقال التفتازاني في شرح قول المفتاح (و اصل الحسن في جميع ذلك ان لا تكون المعاني توابع الالفاظ) ما نصه «ان المعاني اذا تركت على سجيتها طلبت لانفسها الفاظا تليق بها فيحسن اللفظ والمعنى جميعا واذا اتي بالالفاظ متكلفة وجعلت المعاني تابعة لها فات الحسن لفوات ما هو المقصد الاصلي والغرض الاولي بل ربما صارت جهة حسن الكلام جهة قبح لكون الكلام كظاهر مموه على باطن مشوه »

---

(١) قسم ابن الاثير وغيره كتبهم في الانشاء الى قسمين معنوي ولفظي تبعا لتقسيم علماء البديع وهو تقسيم وجيه ولذلك اتبعناهم

(٢) كذا قال ابن الاثير في المثل السائر

فيجب على المتعلم الاهتمام اول الامر بايجاد المعاني و البحث عن الحسن منها ومحاولة التعبير عن الحوادث و الصفات ومظاهر المخلوقات فان ذلك اسهل تناولا ثم يرتقي الى التعبير عن الوجدانيات النفسية ثم الى التعبير عن الحقائق الحكمية ونحوها ولا ينبغي للمتعلم ان يجعل جل عنايته باقتباس آثار الكاتبين ونقل معانيهم لان اعتماد ذلك يصيره غير قادر على مجاوزة معاني السالفين نعم يجوز له ذلك في ابتداء التعلم اذا لم يستطع في وقت من الاوقات احضار معنى ان ياخذ رسالة او شعرا فيحوي معانيه دون الفاظه ثم يكلف نفسه التعبير عنه ولا بد ان يكون ذلك مراد ابن الاثير في كتابه الجامع الكبير اذ قال « يجب على المبتدي في هذا الفن ان ياخذ رسالة من الرسائل او قصيدة من الشعر و يقف على معانيها و يتدبر اوائلها واواخرها و يقرر ذلك في قلبه ثم يكلف نفسه عمل مثلها مما هو في معناها و ياخذ تلك الالفاظ و يقيم عوض كل لفظة منها لفظة من عنده تسد مسدها (١) والنظر في تعيين هاته المواضيع لمدرس فن الانشاء

تعريف المعنى و تقسيمه

عرف السيد الجرجاني المعنى « بانه الصورة الذهنية من حيث تقصد من اللفظ فهما او افهاما » وفوائد القيود ظاهرة ثم ان المعنى ينقسم الى بسيط ومكيف فالبسيط هو الخالي عن التحسين ويسمى الخاطر سواء كان مشهورا نحو. العلم نافع. ام كان غريبا نحو. الصمت حكمة. والجدة عون على المروءة . والمكيف هو الذي زيد فيه تنميق من خصوصيات الكلام لافادة محاسن للمعنى وتقرير له

(١) سياتي ان هذه الطريقة نافعة في الارتياض و التمرن و ما حكي عن القاضي الفاضل هنالك

كالاستعارة في مثل. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . والاحسان سلاح النصر . وكذلك التقديم لافادة الحصر و نحو ذلك و قد يسمى بالشعور ما كان دقيقا خفيا كالمعاني الشعرية

صفات المعنى

للمعنى ثلاث صفات لحسنه يجب توخيها و هي الوضوح و السداد والشرف

اما الوضوح فهو سهولة ماخذه من قول صاحبه بان يخلو عن اللبس وعن التعقيد المعنوي وعن الكنايات الخفية وقد تكفل ببيانها علم البلاغة إلا اذا كان في مقام يراد فيه الاخفاء او التشكيك فيجوز من اللبس والكناية ما هو خفيف و الاحسن أن يكون المعنى المطلوب اظهر من الآخر فمن هذا قول المتنبي في كافور

وما طر بي لما رايتك بدعة * لقد كنت ارجو ان اراك فاطرب

قال ابو الفتح ابن جني قرأت على ابي الطيب ديوانه الى ان وصلت الى هذا البيت فقلت له يا ابا الطيب ما زدت على ان جعلته ابا رنة فضحك لقولي وكذلك في مقام المزح او الاستخفاف مثل ما ذكر عن اياس القاضي مع الذي قال له اين القاضي فقال بينك و بين الحائط الى ان قال له اقض بيننا قال قد فعلت قال على من قال على ابن اخت خالتك . وقال النبي صلى الله عليه وسلم للذي تأول الخيط الابيض و الاسود على حقيقتهما انك لعريض القفا . ومن هذا القبيل الالغاز لاختبار تنبه السامع او للاخفاء عن الغير كما حكي ان اعرابيا اوصى الى قومه ينذرهم عدو هم و كان اسير ابيد العدوان العوسج قد اورق واشتكت النساء واتركوا ناقتي الحمراء فطالما ركبتموها و اركبوا جلي الاسود واسألوا الحارث

عن خبري (١) قال ابن الاثير في المثل ان الكاتب او الشاعر ينظر الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني .

و اما السداد فهو الموافقة للواقع و المطابقة لمقتضى الحال من غير زيادة كقول لبيد.

الا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

وقول الآخر

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق

و قد يخرج عن ذلك الى المبالغة ان اقتضاها الحال فيقبل منها ما اقتصد فيه كما تقرر في البيان.

و اما الشرف فهو ان لا يكون المعنى سخيفا و لا مشتملا على فضول سواء كان سابقا للذهن ام مبتكرا و كلاهما يجتنب اذا كان سخيفا مبتذلا ومن المبتكر السخيف قول المعري

فيا وطني ان فاتني بك سابق * من الدهر فليعم لساكنك البال

فان استطع في الحشر آتك زائرا * وهيهات لي يوم القيامة اشغال

و قوله في مرثيه لوالد الشريف الرضي

ان زاره الموتى كساهم في البلى * اكفان ابلج مكرم الاضياف

و الله ان يخلع عليهم حلة * يبعث اليه بمثلها اضعاف

و من غير المبتكر وهو سخيف ما خطب به و ال من ولاة اليمامة يعظ الناس فقال «ان الله لا يقار عباده على المعاصي و قد اهلك الله امة عظيمة في ناقة ما كانت ساوي مائتي درهم وفي رواية قيمتها مائتا درهم» فلقبوه مقوم الناقة وقد رأيت

(١) اراد من العوسج الذي هو شجر ذو شوك ان الناس اخذت السلاح لقتال قومه ومعنى اشتكت النساء اتخذت الشكوات لمخض اللبن . واراد بالناقة الحمراء الارض السهلة و بالجمل الجبل .

نسبة هذه الخطبة لعبيد الله ابن الزبير حين كان والي المدينة و ان ذلك لما بلغ اخاه عبد الله عزله و اولى عوضه مصعبا. وقد يعرض للمعنى الشريف سخافة اذا وقع في غير موقعه كما قال ابو فراس

ولكنني والحمد لله حازم * اعز اذا ذلت لهن رقاب

فان ذكر حمد الله على حقيقته في مقام غرام و فخر لا يخلو من سماجة فاين هو من قول الآخر

وقد زعمت اني نذرت لها دمي * ومالي بحمد الله لحم ولا دم

حيث ورد في مقام الشكاية و حسن بكونه مستعملا مجازا على طريقه التمليح

طرق اخذ المعنى

هي ثلاثة . الابتكار . و البداهة . والشهرة اما الابتكار فهو استنباط المعنى بفكر ونظر وهذا الاستنباط اما ان يعرض للمعنى من اصله نحو تشبيه ابن نباته اجتماع الفرح والاسف و جريان دمع مع ابتسام بوابل غيث في وقت الضحى. واما ان يكون بالاخذ من الغير مع حسن التصرف نحو قوله

الناس للموت كخيل الطراد * فالسابق السابق فيها الجواد

اخذا من حديث انما يعجل الله بخياركم. او بتركيب شيئين معروفين والجمع بينهما مثل قول من قال

لا ادخل البحر اني * اخاف منه المعاطب

طين انا وهو ماء * والطين في الماء ذائب

فقد أخذه من كون الانسان طينا و البحر ماء و ذلك واضح مشهور ولكنه تنبه الى الجمع بينهما و ذكر أثر اجتماعهما فاحسن الاعتذار و يسمى المعنى الحاصل بالابتكار عزيزا و غريبا.

واما البداهة فهي اخذ المعنى الواضح للعقل من وجدان و مشاهدة و لا فضل فيه إلا لحسن التعبير و نباهة المعنى في احاطته بملاحظةما تجب ملاحظته و قد يبلغ المعنى من دقة الوجدان ما يلحقه بالمعاني المبتكرة و كل هذا يظهر في الشعر الغرامي والتوصيفي و حكايات الاحوال ومثاله قول من اعتذر عن فراره من الزحف

الا لا تلمني ان فررت فانني * اخاف على فخارتي ان تحطما

فلو انني في السوق ابتاع مثلها * وحقك ما باليت ان اتقدما

و قول الصاحب ابن عباد من رسالة في وصف منهزمين «طاروا واقين بظهورهم صدورهم وباصلابهم لحورهم» فانه لم يزد على حسن التعبير عن الحالة المشاهدة و قول ابي نواس في وصف كؤس ذهب بها تصاوير

تدار علينا الراح في عسجدية * حبتها بانواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها * مهى ثورتها بالقسي الفوارس

و يسمى المعنى الحاصل بذلك بسيطا اذ الفضل كما قلنا للتعبير

واما الشهرة فهي عبارة عن شيوع المعنى حتى لا يكاد يتكلف المتكلم في استحضاره شيئا من عمل الفكر و يسمى المعنى بالمبتذل و يدعو البليغ اليه اما تعينه واما لكون المقام مقامه كخطاب العوام والصغار و ينبغي ان تجنب عنه مقامات الابداع والصنعة ولذلك نعيب على ابن الخطيب رحمه الله قوله في وصيته البديعة «والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل و شرط من شروطها محصل فاستوفوها و الاعضاء نظفوها و مياهها بغير اوصافها الحميدة فلا تصفوها والحجول والغرفا طيلوها الخ.» فانه ما كان مترقبا من مثل ذلك الوزير العالم ان يضمن وصية ابنائه الغر الانجاب ما يتعلمه الصبيان في ايام الكتاب خصوصا في اضيق اوقات الكلام و احوجه الى الملا بالمهام . ومن العجائب ان ابن الاثير ذكر في المثل السائر فصلا لنفسه من رسالة قال فيها «واقبلت ر بارب الكناس في مخضر اللباس فقيل انما اخترن

الخضرة من الالوان ليصح تشبيههن بالاغصان» فعد هذا معنى مبتدعا واعجب به مع انه معنى مبتذل شائع

ترتيب المعاني و تنسيقها و تهذيبها

اعلم انه لا سبيل الى الاستنتاج إلا الترتيب ولا يحصل ترتيب المعاني إلا بتقريرها في الذهن ابتداء ثم رعي التناسب بينها بتفكيكها وتقسيمها و الموازنة بينها. والخطيب احوج الى هذا من الكاتب كما ياتي في الخطابة لانه يقول ولا يكتب فلا يعينه إلا الاعتماد على الترتيب الطبيعي للكلام حتى يعتاد ذهنه ذلك و يصير له دربة وسجية كي لا يرتج عليه ان لم يقرر المعاني في ذهنه ولئلا يلعن بعض كلامه بعضا ان لم يرتبها و يقسمها و يشهد لهذا ما نقل ان النبي صلى عليه و سلم قال لعبد الله ابن رواحه كيف تقول الشعر فقال انظر ثم اقول.

و اما التناسب بين المعاني ففيه يبحث باب الفصل و الوصل من علم البلاغة و كذلك المطابقة المبحوث عنها في البديع و المزاوجة ايضا.

واما التفكيك و التقسيم فهما متشابهان إلا ان التفكيك عبارة عن استقلال كل معنى بنفسه و عدم تراكم المعاني المسمى بالمعاظلة المعدود قديما من عيوب الكلام و قد مدح عمر رضي الله عنه زهيرا بانه لا يعاظل بين الكلامين وذلك ان المتكلم قد يخطر بباله المعنيان فصاعدا فيحاول ان يمزجها جميعا و ينزل السامع منزلة المطلع على ضميره كما قال ابو تمام

سبق المشيب اليه حتى ابتزه * وطن النهى من مفرق وقذال

اراد ان السيف سبق المشيب الى راس القرن فافتك منه الراس و مراده انهم لو لم تقتلوا لشابوا من هول الحرب إلا ان هذا لا يدل عليه لفظه ولكنه شيء قدره في نفسه وتراكم بعضه على بعض فعبر عن الصورة التي حصلت في ذهنه دفعة واحدة